شرقيّة . والمخطوط المذكور سبق لنا وصفهُ في المشرق (٧ [١٩٠٤] : ٦٧٦–٦٧٨) . فيهِ حسون ميمرًا من ميامر القديس افرام نسخهُ في السنة ٦١٢ ه الموافقة للسنة ١٢١٥ مسيحيّة ه ابو الفتح بن ابو النور». امَّا معرّب هذه الميامر من السريانيّة فلم يُذكر ولعلَّهُ عبدالله بن الفضل الانطاكي الذي اشتهر بتعريب اعمال كثيرين من الآباء اليونان والسريان (راجع المشرق ٩ [١٩٠٦] : ٩٤٨ – ٩٥٤) . وفي آخر هذا السِّفر للجليل مديح القديس افرام لمعاصرهِ القديس غريغوريوس اسقف نيسّ اخي القديس باسيليوس الكبير وهو منقول الى العربيّة فقابلناهُ مع اصلهِ اليوناني في مجموعة آباء اليونان لمين (Migne, PP GG. XLVI 819-850) فوجدناهُ مطابقًا لهُ . وقد رأينا في نشرهِ فائدتين: الاولى اثبات ما اصابهُ مار افرام من علوّ المقام والرفعة في اعين اهل زمانهِ حتى الغرباء عن أمّتهِ السريانيّة . والثانية ايراد مثالٍ من كتابة النصارى في القرون الوسطى بالعربيّة ومتدرّجهم في الترجمة من اليونانيّة ولذلك لم نتعرّض لإصلاح الاصل الّا في جُمل قليلة غامضة المعنى ذهب الدّ ببعض الفاظها فاستدللنا على معناها من الاصل اليونانيّ . وهذا المديح يبتدئ في الصفحة ٧٨٢ من نسختنا ل . ش

هذا مديح

الاب القديس غريغوريوس اسقف نيسّ (١

في الاب افرام السريانيّ

١ توطئة الخطاب . لا يجوز ان يوضع السراج تحت المكيال بل على المنارة فالقديس افرام هو ذاك السراج

انَّ الذي يحرّكني على هذا الموضوع الذي انا متكلمٌ فيهِ المثل الذي قيل في الانجيل الالهي وهو مثل المصباح فيحلُّ لساني بعد ما كان لِلجام الصمتِ خادماً ويوضح لي طرق المعاني ويمهّد تمهيدًا للسبل التي تتهاجن (تتهاجمُ) فيها الخيل فيسهّل لمركبة الكلام المختلفة انواعهُ السلوكَ في طريق سهلة ناهجة بما صرّح في هذا المثل قائلًا (متى ٥ : ١٥) : « انهم لم يشعلوا مصباحاً ويضعوهُ تحت القفيز بل على منارة لينير لجميع مَنْ في البيت » ثمّ يتبع المثل بالمعنى المكنون في القول وينادي : « هكذا سبيلُ ضوئكم ان ينير امام البشر حتّى يروا اعمالكم الصالحة ويمجّدوا ابآكم الذي في السماوات »

١) وفي الهامش : « اخو القديس الكبير باسيليوس

٢ ان نفور القديس افرام من كلّ مديح في حياتهِ هو سببٌ يضطرّنا الى مديحهِ بعد وفاتهِ ليمجّد الناس الله في اوليائهِ

فمن هاهنا لستُ مطالباً بالجُبْن والاستتار فيما امر السيّد ان اتجرّأ عليهِ واذكرهُ في هذا المصباح البهي الذي كان ضوؤهُ اشرقَ من ضوء الشمس. وذلك ما ذُكر في الحديث عن سيرة ابينا الالهيّ (افرام) ولا نلزم بترك ذكرها ودفنها(٧٨٣) في قعر الضمت بل نستنفد الوسع في ان نشهرها في ذروة البيعة حتى تظهر لجميع المتطرّفين في مسكن العالم فاذا اشتهرت للناظرين مجّدوا الآب الذي في السماوات. وما سبيلنا ان نهاب ونتّقي الرباط الذي ربطنا بهِ ذلك القديس لأنّنا في تهيئتنا لذلك نتهاون بما امر بهِ السيّد المسيح. فالضرورة الآن توجب ان نأخذ مبادئ المديح من هاهنا. على انّ أخذنا ذلك ربّما كان في وضعهِ مخالفاً لنيّة القديس. لكن من يعرف تمييز الامور يعرف انّ ذلك الرباط المانع عن اطلاق اللسان بالمدح وتكليل الزهد بالمجد البشري انّما هو رباط لا يربط وضبطٌ لا يضبط من اجل حرص عشّاق الفضيلة على ما ذكرهُ ذلك القديس فيما امر بهِ من فرارهِ من مديحنا وصدّهِ ايّانا عن التعرّض لمديحهِ ووجب ان نجعل نحن السبيل الى نعتهِ وتقريظ فضيلتهِ من هاهنا لا سيّما وانّ كلّ واحدةٍ من فضائلهِ حجّة واضحة الى الثناء عليهِ. ولمّا كان هو لا يُسَرّ بمديحٍ كان ذلك زيادةً في فضلهِ وتضعيفاً لفضيلتهِ. وكان(٧٨٤) غرضهُ ألّا يظهر صالحاً بل ان يكون على الحقيقة بارًّا. فلو لم يكن لهُ من الفضل الّا زهدهُ في الاوصاف لقد كان في ذلك كفافٌ يكتفي بهِ من يهمّ ان يمدحهُ لاسيّما وانهُ لم يقتنعهُ الزهد في المديح حتّى اضاف الى ذلك رباطاً ربط بهِ من يريد الثناء عليهِ

فهذا وحدهُ من فضائلهِ قد فتح لنا في الاوّل ميدان الكلام الذي ينبغي لنا فيهِ ألّا نجازف ولا نبعد عن الغرض ولا نهوي في جرفٍ بل نسلك طريقاً ملكيّة ونتأمّل ان ذلك الرجل العجيب لو لم يعلم انهُ اهلٌ للمديح لمّا كان يمنع من يُريد مدحهُ لأنّ من يعلم انّ لا فضل فيهِ يستحقّ بهِ المديح لن يوصي احداً بان لا يمدحهُ بل يكون غرضهُ ان لا يهمل امر نفسهِ جملةً. فمع ذلك ينبغي ان تزيد اهتماماً في مدحهِ. ألا ترى ما قال الخطيب النبيل بولس مزيّن الكنيسة وفم المسيح(١ كور ١٥: ٩): «انني لستُ اهلًا ان أُدعى رسولًا» فلم تمنع عليهِ هذه اللفظة ان يُدعى رسولًا بل زادت في فضلهِ

وعجديه لما ظهر فيها من تطأطئه وتواضعه . وكذلك هذا الاب الجليل لما حكم على نفسه بانهُ غير اهل للمديح(٧٨٥) لتُقاه وتقشفه فهو من هاهنا اهلٌ لكل اصناف المديح لأن ناموس كنيستنا المقدَّسة يريد ان تُكمَّل الراغبين في الفضيلة في كلّ نوع من انواعها . ونوع التواضع وإخناء العقل الى التطأطؤ والخضوع هو من افضل انواعها بحسب ما قيل في بشارات الرب (لوقا ١٤ : ١١) : « انَّ مَنْ يُذلُّ نفسَهُ ويتواضع فهو الذي يرفعها ويجلُّها » فقد صار من ها هنا كلُّ من تعرَّض لوصف هذا الاب الطاهر بعيدًا من كل مذمّة في تقريظهِ ووصف مناقبهِ حتَّى يصير مثل مصباح على منار شامخ يبيّن لكل احد نورهُ وينادي بذكر سيرتهِ الطاهرة

واذا ما شاهد السامع الحكيم لما وعدنا بهِ عرف الصدق في اثر القول عند افتراعهِ واستقرائنا نوعاً نوعاً من فضائلهِ التي منها نحن قد ولَّفنا (أَلَفنا) اكليلاً ذهبياً مرصَّعاً بانواع من الاحجار الثمينة وقدَّمناهُ لعروس المسيح التي هي البيعة المقدَّسة تقدمةً مأثورةً وهديَّةً مخبورةً فانَّها تبتهج لما ترى في ابنائها من المواهب اذا ما حصل للصديقين ذكرٌ تشيد بهِ الالسنة في وقتهِ . فانَّ الزمان في هذا عند تصرُّفهِ قد قدَّم افرام الى مديحنا (٧٨٦) وكيف لا تقبل الكنيسة مثل ذكرهِ بسرور وهو ذاك الانسان الذي افراهُ جماعة النصارى لا تشبع من ذكرهِ والثناء عليهِ اعني هذا افرام السرياني

٣ ليس مديحنا لافرام لاجل مناقبهِ الطيبة بل لاجل فضيلتهِ

فاني لا استحي من ذكر جنسهِ اذ كنتُ اتجمَّل بأخلاقهِ وهو افرام الذي ضوء سيرتهِ وعلمهِ قد انار العالم فصار معروفاً عند كلّ من تطلع عليه الشمس ولم يجهلهُ الَّا مَنْ جهل باسيليوس الكبير الذي هو كوكب الكنيسة المنير . قلتُ افرام الذي هو نهرُ فُراتٍ معقول (١ للبيعة الذي منهُ يشرب جماعة المؤمنين فيثمر كلّ واحدٍ منهم من زرع الامانة بدل الواحد مئة . افرام كرمةُ الله الكثير ثمرتها وكان حملها قيد حلاوتها الشديدة من تعليمهِ . وكانت تُسرُّ أترابُ الكنيسة بتملّيهِ من المحبَّة الالهيَّة . افرام مدبّر الكنيسة الحسن السياسة الامين الذي كان يوزّع اقوالهُ في الفضائل

١) اشارة الى وطن القديس افرام قريباً من الفرات

على مشاركيهِ في العبودية توزيعَ البُرّ (١ ويسوس منزل سيّدهِ السياسة التي لا عيب فيها التي متى ما ذُكر جنسُهُ ووطنُهُ ونباهة والديهِ وشرف اهلهِ وميلادهُ وتربيتهُ ونشوءُ وهيئة جسمهِ وحظُّهُ وصناعتهُ وما جرت عادة مؤلفي الاقوال (٧٨٧) ان يوشحوا بذكرهِ مديحهم كان ذلك فضلاً لا نحتاج اليهِ . اذ كان لم تجرِ عادتُنا انفدح الرجال الالهيين بما هذه سبيلهُ . على انهُ قد كان لهُ من هذا المعنى اكبر حظٍّ لو ذُكر لكان فيهِ كفاية . الّا انّ ما زيّن بهِ هو نفسهُ في سيرتهِ ومقالهِ كان اجلّ من ذلك وافضل فوجب ان نجعل لهُ الاكاليل من القول على هذا المعنى اذ كانت المدائح الحقيقيّة انّما هي من الاشياء التي الينا فعلُها والكرامة الواجبة انّما هي لمن لهُ السلطان على الفعل واما غير ذلك ممّا تقدّم ذكرهُ وتعديدهُ فالذمّ عليهِ أولى ولا يستحقُّ المديح

وعلى كلّ حال كيف يرضى هذا الرجل ان نؤتيهُ الوصف من جنسهِ وهو قد اطّرح كلّ حسَبٍ في العالم واختار ان يكون لله وحدهُ ولداً باتخاذهِ الاعمال الخطيرة ؟ وكيف يتباهى بوطنٍ من كان يتصوّر انهُ غريب في الارض كلها ويستنكف من كلّ قُنيةٍ هيولانيّة ويتصوّرها عدوًّا لما كان يرجوهُ من الطوبى الازليّة في الدار الباقية؟ وكيف كان يمكن من قد وطئ وداس (٧٨٨) صكلّ جنس من حلى العالم وكان يستثقل مع ذلك ثوب نفسهِ الذي هو جسدهُ ويتصوّر انهُ يعوقهُ عن العَدْو في طريق الفضيلة ان يلتفت بعد ذلك الى غُرّف والدٍ او أملاك جدٍّ ؟ وكيف كان يريد الاوصاف والمدائح من نشوٍ جسماني وتربية شريفة وهيئة جميلة وصنعة مأثورة وغير ذلك ممّا يُتباهى بهِ في العالم مَنْ كانت تربيتهُ منذ ابتداء نشوئهِ في درس الكتب الالهيّة وكان شربهُ ورِيُّهُ من المعين الجاري ابداً منها ولم يزل يزيد فيها هذا سبيلهُ الى ان وصل الى المسيح . فاذا كنا نحن قد عرفنا هذا من طرائقهِ واخلاقهِ وانّ ابانا هذا الكبير الجليل لا يرى فيما ذكرناهُ مديحاً بل هزأً وضحكةً فسبيلنا ان نعود الهما يخصُّهُ ونروم تفضيلهُ بما يلائمهُ . لعمري انهُ ليس من شأن القول ان يتجاوز مقدار الطاقة والجدّ بل ان يقف عند الصواب فينبغي ألّا نقصد طريقةً يكونُ الافراطُ فيها عائقاً من المأثور ولا نجري في سبيلٍ غريبة فنخطئ طريقة الآباء الملكيّة القاصدة فيجب من

١) تلميح الى يوسف الحسن في توزيع القمح على المحتاجين مع اشارة الى معنى افرام اي المثمر

ها هنا ان (٧٨٩) لا نحيد في تقرير القول عن مقدار القصد

والذي يجب ان نقدّمهُ لما نرتّبهُ من القول هما العملُ والعلمُ اللذان تتبعُهما العشرةُ الاجزاء من الفضائل وهي الامانة والرجاء والمحبّة وحسن العبادة لله ودرس الكتب الالهيّة وتطهير النفس والجسم والدموع الدائمة وما يتبع ذلك من سُكنى البراري والانتقال من موضع الى موضع والهرب من المضرّات ومداومة التعليم والصلاة التي لا تفتر والصوم والسهر اللذان يُجاوزان كلّ حدّ والهجوع على الحظيظ (الحضيض) والاضطجاع على الخشونة التي تفوق القول والزهد في القنية والخضوع الواصلان الى ابعد غاية والرحمة التي تتجاوز الطبيعة البشريّة والغيرة الالهيّة على الذين كانوا يتكالبون على من يستعمل حسن العبادة وغير ذلك مما شأنهُ ان يماثل خالقهُ الانسانُ الذي يكون متجرّدًا ويجعل جميع عيشهِ لله مُرضيًا. فبهذه المدائح يتجمّل ابونا هذا . وهذا المقال نعرفهُ ونعلم أنهُ يخصُّهُ فنميل الى ذكرهِ وتمديدهِ للمنفعة بذلك لا لهُ بل لنا. لأنَّ لسمهُ المطلق يرشد الى الفضيلة ذوي (٧٩٠) الحرص اذ كنّا لا نعلم شيئاً من اخبارهِ الّا اليسير قد اقتطفناهُ مما زرعهُ في مواضع مختلفة من اقواله فجمعنا نحن من ذلك ما تشبّهنا فيهِ بالنحلة الممدوحة التي تجمع انواع الزهر واصلحنا من ذلك شمّاً روحانيًا. ولن ينقم هو علينا لا محالة فيما نحاولهُ من ذكرهِ لأنهُ لا يجزع من الشيطان الشرّير الذي من شأنهِ ان يُعرقل جماعة عند اواخر جهادهم وقد وصل هذا الاب في هذا الوقت الى موانئ الروحانيين وحصل خارجاً من كلّ اضطراب وتقلقل. فهلمّ يا صاح نتأمّل حال هذا الرجل العجيب في كلّ صنفٍ من الاصناف التي عددناها فنشرح ما لهُ في ذلك المعنى والى ايّ مقدارٍ من الصعود الروحاني وصل اليهِ ونبيّن ذلك للذين قد اجتمعوا هاهنا

٤ ايمان القديس افرام وجهادهُ في سبيلهِ

فنبتدئُ بالامانة التي وصل منها الى الطريقة المستقيمة التي لا تعدل عن حسن العبادة بحسب ما عرفنا من مصنّفاتهِ وما تسلّمناهُ من رأي الكنيسة المقدّسة فيهِ. فانهُ بالسواء رفض ما جمعهُ سابلّيوس (١ في غير وجههِ وما توسوس آريوس في قسمتهِ (٢

١) نكر سابلّيوس التمييز بين اقانيم الثالوث الاقدس ٢) قسمة اريوس أنَّهُ جعل اقنوم ابن الله مخلوقاً من الآب ليس مولوداً فقط

فوقف عند الحدّ المستقيم فيما بين القولين فقسم الثالوث القدّس الواحد الذي لا يختلط ولا يمتزج بالعدد وجمعهُ بالجوهر (٧٩١) حتّى لا يلحقهُ عارٌ من فَقْر اللاهوت على رأي اليهود ولا يأتيهِ من كثرة الآلهة رأيُ اليونانيّة الذين صُرعوا فيهِ . وهذان المنيان لعمري هما اللذان يبكّتان مَن قد سكر من الآراء المختلفة ولم يتهدَّ الواجب في معرفة اللاهوت الذي لا يُدرك . فامّا ابوليناريوس (١ فانّ الاب افرام دفع رأيهُ البهيميّ بكل حرصهِ واخرجهُ من كلّ نفس مسيحيّة

واما الذين يقولون بعدم التشبيه (٢ فسدّ افواههم بحجج الكتاب وبراهينهِ وبكّتهم وخلّف لنا آثارًا من اقوالهِ لا تُرام أوحاها اليهِ البارئ . واما نواطس (٣ فان هبوطهُ بسهام افرام كمثل هبوط الشرير وسقطتهِ بقوّة صليب المسيح فنفي اقوالهِ يجد الطالب قوّة معلمنا هذا ويعرف بهذا المقدار انهُ رجلٌ شهمٌ في المصارعة وانّ خصمهُ صبيٌّ ضئيل في الانخزال ولم يقنع بسفسطة من اشتهر في ذلك الزمان من الهراطقة اذ يرى كيف قطع افرام اصول زوانهم بسيف الامانة وبأقوالهِ السديدة بل اضاف الى ذلك قَطْع الأوهام التي كانت ستنتشر في المستأنف بما ابصرهُ منها بعين النبوّة فحصدها وملأ كتبهُ سلفاً واشعارهُ من البراهين على ذلك(٧٩٢) . وقد وصل هكذا ابنُ الحقّ الى ما لم يصل اليهِ قبلًا غيرهُ

٥ رجاء القديس افرام

واما رجاؤهُ وثقتهُ بالله وحدَهُ فدلّت عليها النعمة الحاصلة لهُ من الرجاء والخيرات المخزونة لذوي الثقة في المعاد . وكان لا يزال يهدُّ بقولهِ وعملهِ في جميع عمرهِ بقول الزبور (٢٧ : ٧) : «قلبي على الربّ عوّل فسُوعدتُ وغا جسدي» ولمّا كان رجاؤهُ وثقتهُ بالله على هذا المعنى «احاطت به نعمةُ ربّهِ والتوكّل على رحمتهِ (مز ٣١ : ١٠) لأن الرحمة تجعل المتوكّل عليها مثل جبال صهيون وترفعهُ الى شاهق من الطوبى والسعادة الصادقة وكان يعرف اتمّ معرفة ما قيل في الانبياء كقول داود (مز ١٢٤ : ١) : «طوبى

١) ابوليناريوس زعم انّ السيّد المسيح كان خاليًا من النفس البشريّة وانّ اللاهوت كان يقوم في جسدهِ بدلًا منها ٢) هؤلاء صنف من الهراطقة الاريوسيين كانوا يُدعَون باسم الأتوميين اي القائلين بعدم شبه الاقنوم الثاني باقنوم الاب وكان زعيمهم فوتينوس

٣) احد هراطقة القرن الثالث للمسيح أنكر سلطة الكنيسة في غفران بعض الخطايا

للرجل الذي اسم الربّ رجاؤه». وكقول هرميا (١٧: ٧): «مبارك الرجل الذي توكّل على الربّ ويكون الربّ رجاءه» فيكون «مثل العود النامي عند المياه الذي اصلهُ قد نُصب في الثرى» (مز ١: ٣). وكقول اشعيا (٣٣: ٢٢): «انّ ملكنا هو الربّ فالربّ مخلّصنا» واني «سأكون معوّلاً عليه فاخلص» (اشعيا ١٢: ٢) وكقول بولس المغبوط وعظهُ (عبر ١٠: ٢٣): «متمسّكين ان نتمسّك بالميعاد فانّ الذي وعدنا ثقةٌ امين». فلمّا كان ابونا هذا افرام مفتذياً بهذا الرجاء تهاون بالعالم وبكل ما فيهِ واشتاق وصبا الى المجد (٧٩٣) الدهريّ الباقي الى الابد

٦ محبّة القديس افرام لله

واماً محبّتهُ لله وتقريبهِ فقد وصل من الاستقصاء في حفظها الى المقدار الذي قالهُ هذا الاب الالهيّ عند انصرافهِ من العالم ممّا لا نحتاج معهُ الى برهان من جهة اخرى قال: «انّي ما جدّفتُ على الربّ في جميع عمري ولا خرجتْ كلمة جهل من شفتيّ في جميع حياتي ولا لعنتُ احداً ولا خاصمتُ احداً من المؤمنين» فيا لهُ من لسان سعيد تجاسر ان يلفظ بهذا اللفظ الذي لا يليق ان يقولهُ بالحقيقة الّا الملئكة الذين لا هيولي لهم ولا اضطراب في حياتهم. واماً نحن المرتبطون بخدمة الجسد فهذا القول غريبٌ فينا وفوق طبيعتنا وقد يصعب علينا ان نقوم بالواجب فيهِ. وستتعب كثيراً ايها السامع في الفحص عن جماعة المذكورين بالفضل قبل ان تجد مثل هذا الاب القديس في طهارة حياتهِ وخالص وُدّهِ لانّ المحبّة اجلّ الفضائل واكبرها وقد حفظها افرام وقام بواجبها اكثر من غيرهِ من الآباء. ولكن «اذ يأخذ كلّ احد في المعاد على قدر اعمالهِ» (متى ١٦: ٢٧) فانّا نترك القول في هذا لغيرنا ممن يريد (٧٩٤) ان يستقصيهُ حتّى لا نُتصوّر بصورة من يريد ان يقابل بين الآباء ويعادل الواحد منهم بالآخر. ولم نذكر ما ذكرناهُ على جنس المعارضة والمباراة وانّما ذكرناهُ لنبيّن منهُ نموذجاً من اعمالهِ حيث رقي بنفسهِ الروحانية الى ابعد غاية اعني ابانا هذا بل ابا العالم ومعلّم جميع المسكونة افرام الالهيّ (لهُ صلة)